أما صاحب كتاب « الاستشراق » فيضع مفهوماً آخر للاستشراق من واقع الاستشراق ، فينظر إليه نظرة شمولية فالاستشراق «ليس مجرد موضوع أو ميدان سياسى ينعكس بصورة سلبية فى الثقافة ، والبحث، والمؤسسات، كما أنه ليس مجموعة كبيرة ومنتشرة من النصوص حول الشرق، كما أنه ليس معبراً عنه ، وممثلاً لمؤامرة إمبريالية غربية شنيعة لإبقاء العالم الشرقى حيث هو. بل إنه بالحرى، توزيع للوعى الجغراسى(أى الجغرافى السياسى)إلى نصوص جمالية، وبحثية واقتصادية، واجتماعية، وتاريخية ، وفقه لغة، وهو إحكام لا لتمييز جغرافى.أساسى وحسب (العالم يتألف من نصفين غير متساويين، الشرق والغرب) بل كذلك لسلسلة كاملة من المصالح التى لا يقوم الاستشراق بخلقها فقط ، بل بالمحافظة عليها أيضاً بوسائل كالاكتشاف البحثى ، والاستبناء فقه اللغة ، والتحليل النفسى والوصف الطبيعى والاجتماعى، وهو إرادة ، بدلاً من كونه تعبيراً عن إرادة، معينة أو نية معينة لفهم ما هو بوضوح، عالم (أو بديل طارئ)والسيطرة عليه أحياناً ، والتلاعب به ، بل حتى ضمه، وهو قبل كل شىء إنشاء ليس على الإطلاق على علاقة تطابقية مباشرة مع القوة السياسية فى شكلها الخام ، بل إنه لينتج ويوجد فى تفاعل غير متكافىء مع مختلف أنماط القوة مكتسباً شكله إلى حد ما من تفاعله مع القوة السياسية ، كما هى الحال فى تفاعله كمؤسسة استعمارية أو إمبريالية ، والقوة الفكرية ، كما هى الحال مع علوم تحتل مركز الصدارة مثل الألسنية المقارنة ، وعلم التشريح المقارن ، أو أى من علوم السياسة الحديثة، والقوة الثقافية : كما هى الحال مع المذاهب السنية الأرثوذكسية ، وشرائع الذوق والنصوص والقيم ، والقوة الأخلاقية : كما هى الحال مع أفكار تدور حول ما نفعله « نحن » ، وما يعجزون « هم » عن فعله أو فهمه ، كما نفعله « نحن » ، وبالفعل ، فإن منظومتى الحقيقة هى أن الاستشراق لا يمثل ببساطة بعداً هاماً من أبعاد الثقافة السياسية ـ الفكرية الحديثة ، بل إنه هو هذا البعد ، وهو بهذه الصورة أقل ارتباطاً بالشرق منه بعالمنا نحن ... »[1] .

الاستشراق ـ إذاً ـ ليس محصوراً فى الجوانب الأكاديمية فى جامعات الغرب ، أو فى جوانب الفكر والأدب والشعر.والاستشراق لا يمثل إرادة المستعمر بل هو هذه الإرادة ، ولما كان الفكر يسبق العمل،كان النظر إلى الاستشراق بمعزل عن السياسة ،

- الأولى على كتاب الأغانى للأصفهانى ، فشوهوا تاريخنا من خلاله ، فهارون الرشيد الذى كان يحج عاماً ويجاهد عاماً والذى شهدت بلاد الإسلام نهضة علمية رائعة فى عصره صوروه زير نساء (!) فأى خدمة تلك التى قدمها المستشرقون ؟ .

١ ـ إدوارد سعيد : الاستشراق ص٤٦ ـ ٤٧ .